

محمد علي طه\*

## جنين في أحلام شقيّة: نشاط سينمائي ومسرحي متميز لدى عرب 48

كان مخيم جنين ينزف دماً ووجعاً عندما تسلل الفنان محمد بكري عبر الطرق الوعرية، بمساعدة شبان من قرية سالم (منطقة أم الفحم)، مخترقاً الحصار العسكري الاحتلال لمدينة جنين ومخيمها.

السفر إلى هناك كان مغامرة خطيرة جداً، فجيش الاحتلال كان جريحاً وعصبياً بسبب المقاومة الباسلة التي كبده 23 قتيلاً من خيرة جنوده وضباطه. كما أن المؤسسة العسكرية فرضت آنئذ تعتيماً كاملاً على ما جرى ويجري في مخيم جنين لتغطي المجزرة وتخفيها عن عيون العالم.

وصل محمد بكري إلى المخيم والتقى طاقم التصوير (الذي استشهد رئيسه بعد أيام قليلة في أحد أحياء المدينة). وأمضوا أياماً مع أهل المخيم، من مدنيين ومقاتلين ورجال ونساء وأطفال، يكتبون لنا بالكاميرا ملحمة الصمود والبطولة، ورواية المعاناة الفلسطينية في شهادات عن الجريمة، وفي انطلاق قوي لصوت الضحايا.

فيلم "جنين جنين" (53 دقيقة) هو الفيلم الوثائقي الثاني لمحمد بكري بعد فيلمه "48" الذي أنتجه وأخرجه سنة 1998 في الذكرى السنوية الخمسين للنكبة، والذي لم يحقق نجاحاً. وكان فيلم "48" المحاولة الأولى له في مجال الإخراج والإنتاج بعد تجربة غنية وطويلة في التمثيل المسرحي والسينمائي.

"جنين جنين" فيلم وثائقي راق فنياً، حاز الجائزة الأولى للفيلم الوثائقي الطويل في مهرجان قرطاج الدولي. وقد أثار عاصفة سياسية قوية في إسرائيل، ووصفته أوساط يمينية باللاسامية، وبأنه معاد لدولة إسرائيل ويصب في رافد الدعاية الفلسطينية "الإرهابية". وتجندت قوى سياسية من الليكود، والقوى التي على يمينه،

---

(\*) قاص وكاتب مسرحي، رئيس اتحاد الأدباء العرب في إسرائيل.

لمنع عرض الفيلم في إسرائيل، وقامت بتجنيد أمهات جنود قتلى للتحريض الدموي على الفيلم. ولم تتردد أم جندي قتل في وصف بكري بأنه لاسامي. كما أن رئيس دولة إسرائيل، موشيه كتساف، طلب من دور العرض "سينماتك" في القدس الغربية وتل أبيب عدم عرض الفيلم لأنه معاد للدولة.

وقد أسفرت الحملة المعادية للفيلم عن صدور قرار عن وزارة العلوم والثقافة والرياضة الإسرائيلية بمنع عرضه. وجاء في القرار أن الفيلم "يقدم عرضاً مزيفاً للأحداث مع مغالطات وتحريف للحقائق، وأنه دعاية تصور في شكل أحادي البعد الطرف الآخر الذي يوجد في حالة حرب مستمرة مع دولة إسرائيل، وأنه يحدث جرحاً عميقاً في مشاعر الشارع الإسرائيلي لحمله على الاقتناع بأن جيش الدفاع الإسرائيلي ينفذ جرائم حرب في شكل مبرمج وموجه." ووصف بكري قرار المنع بأنه مجحف، واعتبره "خرقاً سافراً لحرية التعبير تجاه شعب يعاني أفزع الانتهاكات." لكن قبل صدور القرار كان تم عرض الفيلم في كل من الناصرة ومخيم جنين ورام الله والقدس الغربية وتل أبيب، ولاقت العروض إقبالاً واسعاً وأصداء إيجابية. وقال لي ناقد فني إسرائيلي من تل أبيب، إن الحملة ضد محمد بكري وفيلم "جنين جنين" حملة فاشية تعكس الخوف من الحقيقة. إنهم يريدون ممارسة القتل ومنع ذكر عملية القتل، بل عدم نشر صورة القتل. وأضاف: "هناك محاولة لفرض رقابة فاشية على الحياة الثقافية. واليمين يبدو واثقاً بالنفس، وخصوصاً إزاء خيانة حزب العمل."

وكتب الصحافي المعروف مئير شنيتر في صحيفة "معاريف" أن فيلم "جنين جنين" فيلم ممتاز، ذو حبكة عالية، لكنه ليس وثائقياً. وأضاف: "لا يوجد عاشق حقيقي للسينما يسمح لنفسه بإضاعة فرصة مشاهدة هذا الفيلم. فمنذ أعوام لم نشاهد فيلماً محلياً ذا تمثيل ومواد وتصوير فني عال وراق كما في هذا الفيلم." ويتابع في مقالته مبدياً إعجابه، وخصوصاً بالحوار والتمثيل، نافياً صفة الوثائقية عن الفيلم.

أمّا محمد بكري فردّ على حملة التحريض الدموية قائلاً: "لقد قلت في قرطاج إن شارون لن ينتصر على الطفل الذي ما زال يعيش في داخلي، وإن محاولة منع عرض الفيلم والتحريض الذي يرافقها لن يثنياي عن المضي قدماً لأنني أوّمن بالرسالة التي أحملها. وأقول للمواطن الإسرائيلي إن في الجانب الآخر شعباً يريد الحياة، وإن الطفولة ليست حكرًا على شعب دون آخر، وأطلب من الإسرائيليين أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لتفهم الآخر وقبوله. لقد أنتجت فيلماً وثائقياً إنسانياً يكشف هول الدمار والقتل،

ويطرح وجهة نظر أهل مخيم جنين، فيلماً يكشف مدى وحشية الحرب ومدى وحشية القتل والتجويع والإهانة والتدمير. وهذه الحملة التحريضية تكشف للإنسانية المشوهين الحاقدين.

في فيلم "جنين جنين" نلتقي شاباً مقاتلاً يتمتع بروح معنوية عالية، يروي بأسلوب ساخر حاد كالسكين أحداث المجزرة، كما نلتقي شيخاً عجوزاً جريحاً يروي ما حدث من خلال دموعه وآهاته، ونلتقي طفلة معجزة كلامها وآراؤها أكبر من عمرها كثيراً.. ونلتقي ونلتقي، لكن الأهم هو ذلك الشاب الآخر الذي اختاره بكري ليروي ملحمة المخيم وقصة المجزرة.

أما الفيلم الثاني الذي تم إنتاجه وإخراجه في فلسطين المحتلة فهو فيلم "مفاتيح"، من إنتاج وإخراج الفنان سليم ضو. وسليم ضو ممثل سينمائي ومسرحي معروف مثل زميله محمد بكري، وكلاهما من مواليد قرية البعنة في الجليل. و"مفاتيح" فيلم وثائقي طويل أيضاً، يروي حكاية الناس الذين ما زالوا يحملون مفاتيح بيوتهم التي هُجروا منها سنة 1948؛ فقد تجول سليم ضو في مدن الجليل وقراه باحثاً عن هؤلاء الناس، ونقل لنا عبر الكاميرا بفضيلة رائعة وإنسانية لا غبار عليها أحزان الناس وآمالهم وأحلامهم بالعودة إلى قراهم وبيوتهم.

فيلم "مفاتيح" ينقل إلى المشاهد معاناة الغربة والجوء، كما يحمل حلم العودة والشوق إلى البيت وملاعب الطفولة. وهو رواية، بل روايات لمفاتيح بيوت من صفورية وحطين وسحماتا وترشيحا والمجيدل ومعلول وإقرث وكفر برعم وشعب... بيوت وقرى هدمتها ومسحتها عن وجه الأرض الدبابات والمجنزرات والجرافات الإسرائيلية. وقد اختار سليم ضو أن يكون العرض الاحتفالي لفيلمه في قاعة جمعية الجليل في شفا عمرو برعاية لجنة المهجرين، وهي لجنة عربية فلسطينية وطنية تدافع عن حق المهجرين داخل إسرائيل (عدهم نحو 250,000 نسمة) في العودة إلى قراهم التي هدمتها القوات الإسرائيلية في حرب 1948، ويبلغ عددها أكثر من 350 قرية. وقد أثار الفيلم بمستواه الفني إعجاب المشاهدين، كما أن "أبطاله" سيطروا على عقول المشاهدين وقلوبهم، واستدروا دموع أكثر الناس جدية.

الفيلم السينمائي الثالث هو بعنوان "في الشهر التاسع"، وهو فيلم روائي من إنتاج مؤسسة "سنابل" وإخراج علي نصار. وقد عرفنا علي نصار في فيلمين روائيين هما "درب التبانة" و"المرضعة"، كما عرفناه في فيلم وثائقي هو "يافا مدينة على الشاطئ".

ويشارك في هذا الفيلم مجموعة كبيرة من الممثلين هم: نسرین فاعور، وأشرف برهوم، ومحمود أبو جازي، وعدنان طرابشة، وبسام زعمط، ورائدة أدون، وسلوى نقارة، وجوليانو خميس، ومحمود عوض، وأحمد أبو سلوم. والفيلم لا يبعد في موضوعه وفكرته عن "جنين جنين" و"مفاتيح". فهو يروي قصة لاجئ فلسطيني يعيش في أحد مخيمات اللاجئين في لبنان، يعود متسللاً لزيارة أهله وقريته في الجليل، ولا يعلم بعودته سوى أخيه وزوجته، ويضطر اللاجئ العائد إلى أن يعيش مختفياً في كهف قرب القرية خوفاً من قوات الأمن. وكان أخوه يزوره في الليل. وهنا يربط علي نصار بين حياة الأخوين وبين أسطورة فلسطينية قروية تحكي عن حيوان وحش يحمل مؤخرته في سلّ من القصب ويختطف الأطفال ويفترسهم.

لقد بذل علي نصار جهداً كبيراً في فيلمه الجديد. وتم العرض الأول والاحتفالي له في مهرجان القدس، ومن المتوقع أن يحقق الفيلم نجاحاً وينال رضا النقاد والمشاهدين. لا شك في أن صناعة السينما عند عرب 48 تعاني عدة مشكلات أهمها التمويل، الأمر الذي يؤدي إلى لجوء البعض إلى الأفلام الوثائقية القصيرة.

وإذا كانت الغلة السنوية السينمائية لسنة 2002 شحيحة إلى حد ما، واقتصرت على ثلاثة أفلام، فإن الغلة المسرحية كانت أوفر حظاً. فقد قدم مسرح "الميدان"، وهو المسرح العربي الفلسطيني الرئيسي في البلد، أربع مسرحيات. ونشطت مسارح صغيرة أخرى في تقديم مسرحية واحدة على الأقل خلال هذه السنة. واللافت للنظر هو الاتجاه إلى تقديم المونودراما، أي مسرحية الممثل الواحد. ويعود هذا إلى سببين: أولهما مالي، إذ تكلفة مسرحية الممثل الواحد قليلة، وثانيهما توفر إمكان عرض المسرحية في المدن والقرى العربية كافة. فالمونودراما يمكن عرضها في ساحة مدرسة، أو في أي قاعة. وقد برهنت التجربة على نجاح مثل هذه المسرحيات، وعلى شعبيتها. فمسرحية "المتشائل"، المأخوذة عن رواية المرحوم إميل حبيبي، والتي يمثلها محمد بكري، لا تزال تعرض منذ 15 عاماً حتى اليوم. كما أن مسرحية "إضراب مفتوح"، التي كتبها محمد علي طه، وأخرجها مكرم خوري، ومثلها سليم ضو، لا تزال تعرض منذ 5 أعوام، وقد حققت نسبة عالية من العروض زادت على المئة عرض.

في مهرجان المسرحيل (المسرحية ذات الممثل الواحد)، الذي جرى في ربيع هذه السنة في مدينة عكا، فازت بالمرتبة الأولى مسرحية عربية هي مسرحية "اعترافات عاهر سياسي"، التي كتب نصها ومثلها عفيف شليوط من شفا عمرو. والمسرحية تنفذ

بأسلوب ساخر ظواهر في حياتنا السياسية، وتعتمد على المبالغة الكاريكاتيرية في طرح هذه الظواهر.

وفي مهرجان "المسرح الآخر"، الذي يقام سنوياً في الخريف - أيام عيد المظلة - في مدينة عكا وتشارك فيه فرق مسرحية عبرية وعربية كثيرة، فازت بالمرتبة الأولى مسرحية "شنتيان" التي كتبها الشاب إياد الحاج من كفر ياسيف، وأنتجها مسرح اللاز من قرية الرامة، وأخرجها مازن غطاس، ومثلتها أخت الكاتب خولة الحاج. وتروي المسرحية قصة إنسانية حدثت في كفر ياسيف خلال ثورة 1936. وكان مسرح اللاز شارك في السنة الماضية في المهرجان نفسه بمسرحية "فساتين" التي كتبها محمد علي طه، وأخرجها مازن غطاس، ومثلتها رائدة أدون، وتحكي قصة فتاة من عكا تركت أهلها ومدينتها في السبعينات، والتحقّت بإحدى المنظمات الفلسطينية في لبنان، ثم شاركت مع مجموعة من المقاومة في خطف طائرة من أوروبا إلى مطار اللد حيث قامت فرقة عسكرية إسرائيلية بقتل زميلها وجرحها واعتقالها وسجنها. وبعد أعوام تخرج من السجن وتعود إلى عكا تبحث عن فستان الزفاف الذي خاطته لها أمها، فتجد فستاناً لامرأة من الشجرة ثم فستاناً لامرأة من ترشيحا ثم فستاناً لزوجة بحار من عكا.. إلخ.

والسؤال هو: إلى أين يذهب مسرح اللاز بعد "فساتين" و"شنتيان"؟!!

وكانت المسرحية الأولى التي قدمها هذه السنة مسرح الميدان مونودراما "رقصتي مع أبي"، التي أخرجها منير بكري، ومثلتها سلمى خشيبون مطر، وترجمها إلى العربية المحكية أسامة مصري عن النص المسرحي العبري الذي كتبه إيتسيك فاينغرتن. وتتناول المسرحية حياة فتاة معاقة وعلاقتها بأبيها الفنان الذي رباها باهتمام كبير ورعاية فائقة حتى مماته المفاجئ، من دون أن يستطيع إتمام الرقصة التي تدرب عليها فترة من الزمن. وبعد وفاة الوالد تدخل الفتاة مؤسسة مغلقة، لكن حياتها تتغير عندما تتمكن من التغلب على عجزها وترقص على أنغام الموسيقى التي وضعها وألفها أبوها من أجلها.

وتقول سلمى خشيبون: "دوري في هذه المسرحية صعب جداً إذ إنني يجب أن أجد القوة من خلال الضعف، والغضب من خلال الهدوء، فأنا أقوم بتمثيل فتاة ثقيلة الحركة والإرادة، عندها نقص جسدي وعقلي طفيفان لكنها محبة وطيبة وساندة إلى أقصى الحدود. لقد قمت مع المخرج منير بكري بزيارة مؤسسات مغلقة لكي نتعرف عن

قرب وأشاهد حالات شبيهة بالحالة التي أتعامل معها."

وقد لاقت المسرحية نجاحاً كبيراً، وأطرتها الصحافة بعدة مقالات. وسلمى خشيبون ممثلة ومغنية وراقصة تقدم رقصات تعبيرية بصورة رائعة. وبرزت قدرتها، تمثيلاً ورقصاً وغناء، في المسرحية الاستعراضية "حوض النعنع" التي كتبها محمد علي طه، وأخرجها فكتور قمر، وأثارت أصداء واسعة في البلد والخارج بعد عرضها في مهرجان جرش.

أمّا المسرحية الثانية لمسرح الميدان فهي "مشهد من الجسر" للكاتب الأميركي آرثر ميلر، والتي ترجمها وأعدّها وأخرجها محمد بكري. وقد قام بكري بإضفاء أجواء جديدة على المسرحية كي تلائم واقعنا. والمسرحية تلخص تجربة رب عائلة بسيط يحاول أن يمنع ابنة أخت زوجته من الزواج بقريب لها يأتي في زيارة عمل وترغب في الزواج به. وتتأزم الأمور في العائلة، ولا يستطيع أحد منع تدهور الوضع، وتنتهي الأمور بكارثة.

نجح بكري في تعريب المسرحية، وجعلها تروي قصة عاملين عربيين يأتيان من الأردن للعمل في إسرائيل، ويقيمان ببيت قريبة لهما اسمها سعاد متزوجة برجل محافظ اسمه خالد. وسعاد وخالد يربيان فتاة صبية يتيمة اسمها سميرة. يشعر خالد بأن سميرة ملكه، فيتدخل في لباسها ومظهرها ويحاول منعها من العمل خارج البيت، ويظهر قلقه عليها من الناس، في حين يخفي في داخله حباً لها، وخصوصاً أن علاقته بزوجته متوترة.

ويتفجر شعور خالد عندما يتيقن أن سميرة تحب هشام، الشاب الذي جاء للعمل في إسرائيل، ويحاول تخريب هذه العلاقة فيطرد الأخوين زياد وهشام من بيته. ثم تتغلب مشاعر الحقد والأنانية، فيشكو العاملین اللذين يحملان الجنسية الأردنية إلى الشرطة، التي لا تلبث أن تأتي لاعتقالهما. وهنا يتشاجر زياد الشاب الجدي والقوي البنية مع خالد، فيسقط خالد على نصل سكين كان يحملها في يده.

شارك في التمثيل محمد قدح، وفاتن خوري، وهند أيوب، وطارق قبطي، ومحمود أبو جازي، وهشام سليمان، وبيان عنثير، وعلي سليمان.

وإذا كانت المسرحية الأولى مأخوذة عن نص عبري، والمسرحية الثانية عن نص إنكليزي، فالمسرحية الثالثة، "بؤس ورعب الرايح الثالث"، مأخوذة عن نص ألماني.

فهي للكاتب المسرحي الألماني برتولت برخت، وترجمها وأخرجها رياض مزاروة. وهي تنتمي إلى الأدب الملحمي. وقد لاقت المسرحية نجاحاً واسعاً؛ وهذا يعود إلى التمثيل الجيد الذي أداه كل من محمد قدح، وأشرف برهوم، وإيهاب سلامة، وآمال فيس، وفاتن خوري، ونسرین فاعور، وإلى الإخراج الناجح لرياض مزاروة، وإلى جدارة مصمم الديكور موشيه يوسيبوف، وإلى موسيقى بشارة الخل. ومن الجدير ذكره أن الجمهور وجد في المسرحية شيئاً مما يجري في أيامنا. وقد أشارت إحدى الصحف إلى أن التوقيت لمثل هذا العمل جاء مناسباً جداً على الرغم من أن كتابته كانت في عهد هتلر. فالهامشية السياسية التي نحيها في هذه الأيام، والتي أثرت في الاقتصاد والإعلام والحياة الاجتماعية، لا تختلف كثيراً عن وضع المواطن الألماني في تلك الفترة. وأشارت صحيفة أخرى إلى أن المشاهد سيجد في المسرحية تقاطعات مع الحالة الإسرائيلية - الفلسطينية بالأجواء الإرهابية، واغتيال المناضلين، والشرطة السرية، وأعداد المعتقلين الهائلة بتهمة المقاومة، وظاهرة العملاء والخيانة، وكأنها مأخوذة من حالة أيامنا.

وكتب سالم جبران: "إن مسرح الميدان يوطد مكانته مسرحاً محترماً رائداً ومعلماً هاماً من معالم بناء الهوية الثقافية والفنية لشعبنا. إن تقديم هذه المسرحية الصعبة والقوية والجادة هو وسام شرف للمسرح الذي لا يريد طبعاً أن يكون مسرحاً للتسلية بل مسرحاً لتحرير الإنسان وإعطاء أجنحة للمشاهد للتخليق أبعد من الراهن الآني والتفكير بالمصير الإنساني العام."

أمّا المسرحية الرابعة التي باشر مسرح الميدان إنتاجها، فهي مسرحية "أحلام شقية" للكاتب العربي السوري الكبير الراحل سعد الله ونوس، التي كتبها سنة 1994. وهي تعالج موضوعاً اجتماعياً أثّر ويؤثر في حياتنا، وهو اضطهاد المرأة العربية. في هذه المسرحية يعرّي سعد الله ونوس المجتمع العربي. وقد عبّر إميل حبيبي قبل أعوام عن ذلك عندما كتب: "في مسرحية (أحلام شقية) وجدنا أصدق شجاعة في تعرية مصيبة المصائب في مجتمعاتنا العربية - اضطهاد المرأة العربية، الأم والزوجة والأخت والابنة، فحتى الحلم بالمساواة محظور عليها." يشترك في المسرحية سليمان ومحمد عودة الله، ومحمد قدح، وسلمى خشيبون، ويخرجها منير بكري.

لاحظنا أن مسرح الميدان أنتج أربع مسرحيات لمؤلفين غير فلسطينيين، وهذا يشير إلى النقص الكبير في كتابة نصوص مسرحية محلية تعالج قضاياها، وتعكس

صورتنا، وتعبّر عن همنا وحلمنا. ومهما يكن فإن النشاط السينمائي والمسرحي لدى  
عرب 48 على الرغم من "رعب" جنين "يبقى" مفتاحاً لـ "أحلام شقيّة" ما زلنا  
نحياها. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>